هارب

يسرى الأيوبي

رفع أحمد رأسه وقد غاضت الابتسامة المتألقة في عينيه وتوقف عـن تقـشير البرتقالة في يده وقال والأسى يفيض في نبرته، إذ لم تطفئ السنون الطوال تلك اللوعة التي تلهب جوانحه كلما ذكر أخاه البائس:

- كيف عاد؟ إنه لم يشف بعد.

قالت أخته شارحة الأمر:

- لقد هرب.. غافل الممرضين والحارس وهرب، وسلك طريقاً وعرة بـين الأحراش وهو يخبط على غير هدى حتى أدمت الحجارة المدببـة والأشـواك قدميه العاريتين، وأصابته في مواضع من جسمه ورأسه الرضوض والخدوش. وقد شوهد عند الصباح في قرية القابون بلباس المشفى ممزق الثياب عـاري الرأس والقدمين مدمى موحلا، فقبض عليه رجال الـشرطة وأعـادوه إلـى المستشفى.. ولقد تلفن الطبيب إلى والدي يخبره بالأمر فرأى أن يحضره فترة من الوقت إلى البيت ما دامت حالته هادئة.

تأوه أحمد وعاد إلى تقشير البرتقالة بفتور وهو ساهم غارق في التفكير.

عالم زاخر من الذكريات يصطرع في أعماقه.. وراقبته زوجته بصمت وهـي تذكر المرة الأولى التي سمعت فيها بمحمود.

كان ذلك في الشهور الأولى من زواجهما، وقد نزلت في ضيافة أهله ريثما يتم دهن البيت الذي استأجره زوجها لسكناهما. كانت تقرأ قصة فرنسية أخذتها من مكتبة الدار، وكانت كثيراً ما تمر فيها على تعليقات طريفة كتبت بالرصـاص على حواشي صفحاتها تدل على أن المعلق حاد الذكاء خفيف الروح حاضـر النكتة.. وضحكت وهي تلتفت إلى زوجها الذي استلقى على مقعد مريح بعـد الغذاء يقرأ الصحيفة باهتمام.

قربت منه الكتاب وسألت:

- هل أنت كاتب هذه التعليقات؟

فتناول الكتاب وقلبه وأمعن فيه النظر.. لقد عرف الخط فاكفهر وجهه الأسمر وشحب وارتجفت شفتاه.. أخذ يحدق في الأرض صـامتاً وقـد عقـد مـابين حاجبيه.

وأحست الزوجة كأنما في نفسه جراح لا يريد أن يبوح عنهـا، ورنـت إليـه بعطف دون أن تنبس بكلمة وقد عصر قلبها قلق غامض. أنها لا تقوى علـى رؤياه هكذا في مزاجه الحزين.

وتناول لفافة كان قد أشعلها وتركها على المنضدة تتوهج وتنثر رمادها ثم قال:

- إنه أخي محمود.

- لم تحدثني عنه من قبل.. أهو على قيد الحياة؟

- إنه في حكم الأموات.. في مستشفى منذ خمسة عشر عاماً ولا يرجـى لـه شفاء.

- خمسة عشر عاماً! أي مرض ألم به؟

- أصيب في عقله.. في ذلك العقل النير الذي كان يضيء الطريق لمن حوله، وهو لا يزال في باكورة الشباب في أول سنين الجامعة.

وزفر زفرة حرى:

- إنه ضحية.. أحد ضحايا الاستعمار المجرم.. لعل مأساته هي وراء كرهـي الشرس للمستعمرين، أينما كانوا.. لا أزال أذكـره بقوامـه الفـارع وعينيـه السوداوين اللاهبتين ببريق الذكاء، واندفاعه كالشرر أو كالريح العاصفة يتقدم الصفوف في المظاهرات.. أحد شباب الطليعة الذين تزخر صدورهم بأمـاني أمة بل حتى أرفع من هذا، بعالم إنساني يسوده العدل لا يستعمر فيـه إنـسان إنساناً ولا يستثمره.. لقد نبضت في عروقه خفقة واعية من خفقات قلب الشعب الجبار حين ينتفض من خدره أثر عملية جراحية خطيرة فيحس بآلامـه التـي هدهدها المخدر. لقد كان أسبق منا إلى الوعي بحاجات هذا الشعب والنـضال من أجلها، وعندما يخطب تشعل روحه الثائرة نفوس زملائه من الطلبة، وكان له تأثير قوي بينهم إذ رزق بفصاحة وبيان ندر فـي سـواه، وحـين يقـود المظاهرات تحمله القلوب قبل الأعناق، وصوته يدوي بغضب الـشعب الـذي

يكبته في الصدر طويلاً ثم ينفجر، فلا الرصاص ولا الغازات المسيلة للـدموع تفرق جمعه أو تثنيه عن غايته.

ويقبض عليه المستعمرون فيمن وقع في قبضتهم من أحـرار عكـروا حلـم المستعمر الجميل في أن يستمر إلى الأبد في قهر الشعب ونهب خيرات البلاد دون حسيب.

ويلقى من شراسة قمعهم نصيباً أوفى من غيره.. فها هي الـسياط وقبـضات المسدسات وأطراف البنادق تنهال على رأسه في وحشية حتـى يغيـب عـن الوعي.. وخرج بعد بضعة أيام بكفالة من والده تائه النظرات، شـارد اللـب، واجماً منكسراً.. وتبدو عليه بوادر غريبة، ثم تلح عليه العلة، وتصيبه النوبات حتى غدا وضعه في المستشفى هو كل ما نستطيع أن نفعله له. قال الأطباء أن حالته ميؤوسه، وأغلق خلفه الرتاج الحديدي ليحيا هناك وحيداً مهجوراً ضائعاً أسير الجدران العارية القاتمة مدى الحياة.

صمت أحمد ولم تعلق زوجته بشيء.. كان في أعماقها أسى وثـورة حانقـة وترقرقت في عينيها الدموع، ونظرت إلى بعيد من النافذة المفتوحة على منظر بهيج من الغوطة، على شجرات السرو الفارعة تزقزق فيها العـصافير وهـي تسبح هانئة في دفقة من نور شمس الأصيل. وخيل إليها أنها تراه فـي مـأواه الموحش تارة بين أيدي الجلادين من الممرضين وتارة أخرى يجلس وحيداً في حديقة المستشفى خاوياً تعاوده الذكريات في ضباب العقل المشوش. أي ظلم في أن يحرم مثل هذا الشاب نور العقل ونعمة الحرية!

وسمعت عنه الكثير بعد ذلك من والده وأخواته وإخوته وأصدقائه.. لقد كـان يدرس أخته وهي في الجامعة الفلسفة والرياضيات في ساعات صحوه، وتمـر به فترات يعود فيها إلى كامل وعيه فإذا بالذكاء والعمق ودقة الملاحظة تبرق في حديثه وفجأة يصاب تيار عقله بالخلل، فيخبط في تيه من الأوهام.

دخل أحمد غرفة الجلوس حيث اجتمع أفراد العائلة. وكان محمود بينهم يرتدي بيجامة قصيرة الأكمام منحسرة عند الساقين، وابتسم وقدم لزوجة أخيه كرسيه بلطف وجلس على الخوان وقد انفرجت شفتاه عن ابتـسامة لا تحمـل معنـى

الفرح أو الحزن. كان يبدو أكبر من سنيه، وغلب البياض على الـسواد فـي شعره واستطال على جنبيه وصدغيه حول وجه شاحب نحيل. أما عيناه فكانتا غير مثبتتين على أحد أو شيء بل على عالم من صنعه، وقد بدت فيهما نظرة تائهة غريبة، وكان يمد يده من حين لآخر ليحك بها رأسه أو ظهـره فلمحـه أخوه الأكبر وقال منبهاً:

- إن رأسه فيه قمل.

وأخذ الجميع في الحديث فيما إذا كان من الخير أن يحلقوا له شعره أو يغسلوه بالغاز.

قال أحمد: إن الفلايتوكس مفعوله أقوى.

ولما لم يكن لديهم ذلك المبيد للحشرات أخرج أحمد من جيبه مفتاح السيارة كي تعطيه زوجته للسائق فيأتي به من صيدلية قريبة

التفت أحمد إلى أخيه وفي عينيه ألق الدعابة والحنان:

- ولك، كيف هربت؟

وأخذ محمود يضم ركبتيه، ويرفع قدميه العاريتين المشققتين عن الأرض وفكه يختلج بضحكة مكتومة دون أن يبالي بالإجابة. ولما أعاد عليه أخوه الـسؤال أجابه:

- هربت من ثقب الباب!.

كان يتحدث كأنه عاقل يمزح، وضحك أحمد وبانت ثناياه البيـضاء الناصـعة النضيدة. وكانت زوجته في تلك الأثناء تصغي إلى عمها الذي كان يوجه إليها الحديث وهو منفعل:

- لم أر مثل هذا الإهمال.. لا نظافة ولا رعاية ولا دواء.. لا أحـد يعـرف واجبه في بلادنا، والفساد مستشر في كل مكان.. نبعث إليه بالثياب فيـسرقها الممرضون، ونأخذ إليه طعاماً، فلا يأكل منه شيئاً، أما المال لو أعطيته حتـى لشرب السجائر فهو لا يبقى في يده يوماً واحداً.

ما كان هذا الكلام بجديد على أسماع الزوجة فوالد أحمد وهو رئـيس بلديـة متقاعد طويل القامة مهيب الطلعة، يخطئ الكثيرون ممن يـشاهدون صـوره

المعلقة وهي بحجم كبير فيحسبونه سعد زغلول. كـان مـن الرجـال الـذين يكرهون الفوضى وهو الذي أخلص لعمله وعاش حياة مستقيمة نزيهة، يـسيئه أن يرى غيره على غير ما عهد في نفسه فينفعل بحماس الشباب بالرغم مـن تجازوه السبعين يندد بالحالة التي وصل إليها الناس مـن انعـدام المـسؤولية والتميع والتفسخ واللامبالاة والانتهازية.

لم يكن بوسعه أن يغير هذا الوضع السيء فلا أقل من أن ينقم عليـه أو يثيـر أبناءه لتقويمه. هتف بأحمد بلهجة مزيج من اللوم والفخر:

- أنت أيها المحامي اللامع.. كيف تسمح أن يكون أخوك في مثل هذه الحال؟ يجب أن تحدث الطبيب، إنهم يهابونك في المستشفى.

كف أحمد عن مداعبة أخيه بأسئلته المرحة وهي مزيج مما يطرح على رجـل ناضج وطفل يحبو نحو الإدراك. ليختبر ما آل إليه أمره بعـد تلـك الـسنين الطويلة، وكان في المدة الأخيرة قد انشغل عن زيارته بمهامه الكثيرة، والتفت إلى والده وقال:

- وماذا يفيد الكلام؟ يعتنون به يوماً ثم يعودون إلى إهمالهم السابق ويعاملونه كباقي المرضى.

وكان محمود يهز رأسه وهو صامت ويضحك لنفـسه ضـحكته المكتومـة، وأردف الوالد:

- هؤلاء المرضى بشر، وأبناء عائلات، وليسوا سوائم أو حشرات.

وقاطعه الأخ الأكبر بلهجة ساخرة:

- الناس ينهشون لحوم بعضهم وهم أصحاء فكيف يشفقون على المرضى؟ قلنا الاستعمار سبب مصائبنا، تخلصنا من الاستعمار وتحررنا، ماذا تغير فينا؟

أحضر السائق الفلايتوكس فخلع أحمد جاكيته وشمر أكمـام قميـصه وقـال لمحمود:

- تعال معي يا محمود إلى الحمام..

لقد أصر على أن يقوم هو بتنظيفه، وانقاد له محمود دون أدنى مقاومة.

راح يفرك له رأسه مجانباً الجروح التي جفت عليها الدماء وهو يسأله "هل تتألم؟" فيجيبه بالنفي وعضلات وجهه تتقلص بالألم. وعندما رجعا كان رأس محمود يقطر ويجري السائل على رقبته وجبينه وصدغيه فيمسحه بطرف كمه. ولقد انسابت قطرة إلى عينيه فراح يفركها بيده حتى تضرج بياضها. وجلس على طرف الخوان بائساً قلقاً وأحمد يتطلع إليه وقد تمزق قلبه لذلك الإنسان المحطم الذي كان من الممكن أن يكون شيئاً مذكوراً.

قال له: - إنها نصف ساعة وتغتسل.. هل تعرف أن تغتسل بمفردك ولا تؤذي نفسك؟

- نعم.

وعندما عاد محمود نظيفاً من الحمام كان الحديث يدور حوله.. ثم انتقل الحديث إلى السياسة وشؤون البلاد، هذا العالم الحركي الهائل الذي قطع كل صلة واهتمام به يوم ترك العاصمة وانزوى في خواء عالم المستشفى. كان الحديث يطربه بالرغم من شعوره بالغربة العصية في أغواره.. إنه في الواقع لا يهمه وان كان يشعره بالدفء بين أهله، وأهم عنده تلك البرتقالة التي قدمت له مقشرة وأخذ يمص حزوزها بشغف قبل أن يلتهمها. لقد عادت مداركه إلى طفولتها الأولى وغدا إنساناً آخر لا يمت إلى الأول بصلة. إنه لا يستطيع اللحاق بتلك الإهتمامات والمشاغل التي تشغل بال الأصحاء، وأحس بضيق في صدره كذلك الذي كان يشعر به في المستشفى بل أسوأ، بأنه دون الجميع وبأنه حتى لو شفي فلن يستطيع أن يلحق الركب الذي فاته أبداً.. إنه وحيد غريب!..

وتناول صحيفة قريبة وراح يتفحصها.. طوال مرضه لم يكف عن قراءة الصحف، وكانت لديه الصحف سواء تلك التي يزوده بها أهله، أهي صحيفة اليوم أم قبل عام. قال أحمد وهو يبتسم مشجعاً:

- أترى؟ إن الاستعمار يندحر في كل مكان من الكرة الأرضية، في كوريا، في فيتنام.. لقد غدا أسداً جريحاً يجر أذيال الخيبة أمام القوى الوطنية التحررية.. لقد كنا نسخر منك يا محمود حين كنت تتنبأ بانتصار الشعوب.. كنت أكثر إيماناً واستنارة منا.

وكان محمود لا يزال يقلب الصحيفة بين يديـه وقـد بـدا عليـه الاهتمـام والانزعاج.

- كل إنسان يتحدث عن هذا النبأ فكيف لم تنشره الصحف؟

سأله أحمد بعطف:

- أي نبأ يا محمود؟

- إن رئيس الدولة يريد أن يعطي كل من يدعى باسم عبـد الله بيتـاً.. ألـن أستطيع أن أحصل أنا الآخر على بيت؟

وضحك أحمد ضحكة حزينة:

- ولكنك لا تدعى عبد الله.. إسمك محمود.

- الأمر بسيط، أستطيع أن أغير اسمي.. يجب أن تجد لي بيتاً، ألم تسمع بهذه القصة؟

- أية قصة؟

- إنهم يريدون أن يقطعوا رؤوسنا، هؤلاء الممرضين الملاعين.. ألا تـسمع هذا الخبط؟ لقد تبعوني إلى هنا.. سيقيدوني ويعيدوني إلى المستشفى.. يجب أن تغير إسمي وتجد لي بيتاً يا أحمـد قبـل أن يفـوت الأوان، وقبـل أن يذبحوني.. يجب أن تجد لي بيتاً، أرجوك، أقبل يديك، أنت لك نفوذ..

وأشاح أحمد بوجهه حتى لا يشاهد أحد الدمعة التي طفرت من عينيه العصيتين على الدمع، مسحها بطرف أصابعه وعانق أخاه الذي ألقى برأسـه باستـسلام على كتفه..

* * *